عبد العزيز الدوري

أوراق في التاريخ والحضارة: أوراق في الفكر والثقافة

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩). ٣٦٧ ص. (الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري؛ ١١)

فيصل درّاج

ـ ١ ـ

يتألف هذا الكتاب من جملة دراسات متداخلة متكاملة، كُتبت في مناسبات مختلفة، تمتد من بداية منتصف القرن الماضي (عام ١٩٥٢) إلى مطلع الألفية الثالثة (عام ٢٠٠١)، عالجت مواضيع متقاربة محورها الهوية العربية في وجوهها المختلفة: أصول الثقافة العربية، مسألة الوحدة العربية منذ ظهور الإسلام، الديمقراطية في فلسفة الحكم العربي، دور اللغة العربية في توحيد الأمة العربية ونهضتها...، إضافة إلى دراسات أخرى. ومع أن عناوين الدراسات تصرّح بوحدة مواضيعها، فما يوحّدها، على المستوى العميق، ماثل في أبعاد ثلاثة:

أولها، ربط الحاضر بالماضي، ذلك أن وعي الماضي بوجوهه الإيجابية والسلبية شرط للتعرّف على قضايا الحاضر وقراءتها بشكل موضوعي.

ولعل التعرّف على الحاضر وماضيه معاً، وهنا البعد **الثاني**، هو الذي وضع في «أوراق» د. الدوري نبرة تربوية واضحة، تتكئ على معرفة عميقة بالتاريخ العربي وقضاياه، سردها المؤرخ المرموق بأسلوب واضح جلي، بعيد عن التعمّل والغموض.

ويتجلّى البعد **الثالث** في وعي المؤرّخ المبكر بأزمة أمته، التي غفت في «زمن الصعود» وانفجرت، في زمن لاحق، بأشكال مختلفة. وهذا الوعي النيّر دفع المؤرخ إلى الحديث عن أزمة عربية، بصيغة الجمع، في زمن كان الأفق العربي يبدو واعداً. فقد أشار في محاضرته «المجتمع العربي بين الحضارة الغربية والتراث العربي الإسلامي» (عام ١٩٥٥) إلى أزمات أربع: أزمة فكرية، أزمة روحية، أزمة نفسية، وأزمة حضارية... أخذ المؤرخ بمفهوم أصبح رائجاً بعد «استقرار» هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧، معبراً عن بصيرة تاريخية عالمة، ترى الظواهر في بناها العميقة، بعيداً عن «البلاغة الأيديولوجية» التي تخطئ في فهم الحاضر والماضي معاً. تملي البصيرة الموطّدة بالمعرفة على القارئ العربي، المهجوس بقضايا أمته، أن يتعامل

بجدية عالية مع خطاب د. الدوري الذي هو، في التحديد الأخير، حوار بين «الطموح القومي العقلاني» والتاريخ، فلا يمكن «تغيير التاريخ» إلا بمعرفته بـ «ذهن نقدي مفتوح».

يشكّل موضوع «الثقافة العربية الإسلامية» ثابتاً من ثوابت الكتاب، تلتقي فيها القضايا الجوهرية الكبرى: الإسلام، والعروبة، واللغة. فالثقافة العربية، التي تمتد جذورها إلى فترة قبل الإسلام، عثرت في الإسلام، ديناً ودولة، على حاضنة تاريخية أمّنت لها الانتشار والامتداد والتفتّح، ذلك أن الدين الإسلامي نقل العروبة من شكلها القبلي المتناثر إلى شكل عقائدي موحّد حظي، لفترة طويلة، بقوة دافعة ثنائية المرجع: الإيمان الذي استبدل بالولاء القبلي هدفاً جماعياً سامياً، والدولة العربية ـ الإسلامية القويّة، التي زاوجت بين نشر الإسلام والدفاع عنه وتوطيد أركانها وتطويرها. جمع هذا التزاوج بين بيئة مدينية مستقرة، أضعفت البداوة وهمّشت أعرافها، واندفاع إلى المستقبل، وحّد بين الخبرات الجديدة وطموحات الدولة العربية الإسلامية. ساعد على ذلك، بداهة، إجلال العلم في العقيدة الإسلامية، وما نتج منه من منظور مفتوح في التعامل مع معارف «الآخر» وإنجازاته، وتوسّع الدولة الإسلامية الذي فرض حاجات جديدة، في الإدارة والتنظيم وإنتاج معرفة صحيحة بالإسلام، في مواضيعه المختلفة. فقد عملت الدولة الإسلامية الصاعدة على نشر الإسلام، من حيث هو واجب ديني، وعلى نشر اللغة العربية التي هي ضرورة للعقيدة الجديدة. وإذا كانت عروبة الإسلام أعطت العربي شعوراً بالتفوّق على غيره، فقد حمت «لغة الإسلام» الفاتحين العرب من الذوبان في المجتمعات التي وصلوا إليها. أمدّ هذان العنصران الثقافة العربية الإسلامية بالحيوية والتعرّف على الثقافات الأخرى، بعيداً عن آفة «الانغلاق»، وبعيداً أكثر عن آفة أخرى أشد خطراً: الالتحاق بالآخر والانصياع إلى ثقافته.

لا غرابة، والحال هذه، أن يفرد د. الدوري مكاناً واسعاً للغة العربية، فهي لغة القرآن، أساس العقيدة الإسلامية، ولغة العرب الذين اعتنقوا الإسلام وصدعوا برسالته، ولغة الدولة العربية الإسلامية، التي أشرفت على الجماعات غير العربية التي اعتنقت الإسلام، وأخذت بـ «سياسة التعريب»، التي تؤمّن التعليم الديني الصحيح وتضع أسس «مجانسة» المجتمع الإسلامي. واللغة العربية، بهذا المعنى، قاعدة ثقافية عربية، وأساس العروبة، ومن أسس العقيدة الإسلامية، وأداة لنشر الثقافة العربية بين غير العرب وإدخال إمكانياتهم الثقافية إلى نطاق الثقافة العربية الإسلامية. وفي الحالات جميعاً، ساعد الإسلام على نشر العربية، وأكسبها حرمة وأسبغ عليها قداسة. وهو ما جعل الدخول إلى الإسلام تعلّماً ضرورياً للغة العربية، وأقام علاقة ترادف بين الطرفين، كما لو كانت العربية هي الإسلام، وكان الإسلام هو اللغة العربية. ولهذا تعرّبت إلى حدّ كبير، على سبيل المثال، مناطق الفرات الأسفل والأوسط والجزيرة الفراتية، بنهاية القرن السابع الميلادي، بل إن الأعاجم (من غير المسلمين) كانوا «يرون أن من دخل الإسلام صار عربياً» (ص ١١٠). عاد ذلك إلى الإسلام كقوة دافعة متوسعة، تحيل على كتاب مقدس، قبل أن تحيل على نسب ضيّق أو واسع. ومع أن اللغة العربية كانت راقية

ومتطورة، لها شعرها ونثرها الإبداعيان قبل الإسلام، فقد جعل منها القرآن لغة ـ مثالاً، فالقرآن معجزة لغوية عربية من ناحية، وكتاب إلهي باللسان العربي من ناحية ثانية. أعطى هذا العربية بعداً مقدساً، وعيّنها لغة مسيطرة فاعلة، تحاور اللغات الأخرى وتحتفظ بهويتها في آن.

شرح د. الدوري، بمعرفة العالم ولغته، العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية والإسلام، وبين قدسية القرآن واللغة العربية. وعلى الرغم من وضوح الشرح واتساقه، يستطيع القارئ، المشغول بحديث متواتر عن «قدسية اللغة العربية»، أن يطرح السؤال التالي: هل اللغة العربية مقدسة من حيث هي، فـ «هي لسان أهل الجنة» كما قال البعض، أم أن المقدس خاص بالنص القرآني دون غيره؟ والجواب، منطقياً، أن المقدس هو النصّ القرآني وحده، ذلك أن اللغة العربية كانت لغة «الجاهلية» وبقيت، أيضاً، لغة العرب من غير المسلمين. يشتق من السؤال السابق سؤال آخر: إذا كانت اللغة العربية، خارج النصّ القرآني، لغة دنيوية، فلماذا ترفض «أصوات دينية» كثيرة مطلب «إصلاح اللغة العربية»، إسوة بغيرها من اللغات، كما لو كانت اللغة العربية كلها لغة مقدسة، وهو ادعاء لا يستقيم كثيراً؟ يحيل هذا السؤال، لزوماً، على العلاقة بين الإسلام والعروبة، كما سنرى.

ـ ٢ ـ

الموضوع الثالث، الذي يحايث المواضيع جميعاً هو: الوحدة العضوية بين العروبة والإسلام، أو تبادلية العلاقة بين العروبة واللغة والإسلام، إذ إن العروبة ثقافة ولغة، وإذ إن الإسلام دين إلهي عربي اللسان والوسيلة: «فقد هيأ الإسلام قاعدة العقيدة، كما كانت العربية وعاءها وعنصراً أساسياً فيها، فكانت الوحدة بين دائرتي الإسلام والعربية» (ص ١٦٣). تشكّلت هذه الوحدة في عملية تاريخية متعددة الأزمنة، بدءاً من ظهور الإسلام في أرض عربية، وصولاً إلى جهاد العرب المسلمين ومواجهة القوى الخارجية دفاعاً عن الإسلام. ولهذا، «فإن الاقتران واضح بين العروبة والإسلام، كما إن الثقافة العربية في جوهرها عربية إسلامية» (ص ١٨٥). وعن هذا الاقتران، صدر مفهوم الأمة، الذي يشير إلى الجماعة التي ربط اعتناق الإسلام والجهاد في سبيله بين أفرادها، الأمر الذي يعيّن الأمة رابطة إسلامية، تتميّز بلغة وثقافة محدّدتين، لا تنفصلان عن القرآن والحديث ومأثور الجهاد العربي الإسلامي.

يطرح الموضوع الثالث، كما قدّمه المؤرخ د. الدوري، بعض الأسئلة: ما هي حدود الديني والدنيوي في الثقافة العربية، من حيث هي ثقافة عربية اللسان ودينية المضمون، وإذا كانت الثقافة تشمل وجوه الحياة جميعاً، فهل الديني قائم فعلاً في مستوياتها جميعاً؟ وما هو شكل التمازج بين الرابطة اللغوية والثقافية، وهما مستويان دنيويان متغيّران ومتطوّران، والتعاليم الدينية الإسلامية «المقدسة»، التي تنزع إلى الثبات؟ وما هو شكل العلاقة بين الأمة، التي هي مفهوم إسلامي قديم، والقومية العربية التي هي مفهوم دنيوي حديث؟ تحيل هذه الأسئلة، بأشكال مختلفة، على اللغة العربية، التي هي دنيوية ومقدسة معاً، أو مقدسة في إطار محدد، وغير مقدسة على الإطلاق في إطار آخر (اللغة العامية على سبيل المثال).

أضاء د. الدوري، بوضوح لا نقصان فيه، دور الدولة العربية الإسلامية في توليد سياسات ثقافية ولغوية وإدارية، تؤمّن نشر الإسلام وقراءة تعاليمه بشكل صحيح. فقد وضع الأموي عبد الملك بن مروان سياسة للتعريب أسهمت، بشكل فعّال، في نشر اللغة العربية، وتدخلت الدولة الفاطمية في شؤون التعليم العالي وتنظيمه، واتجهت الدولة العباسية إلى المركزية، وكان ذلك عن طريق الجيش النظامي أو أنظمة الضرائب... قصدت الدولة الإسلامية من وراء ذلك «مجانسة» المجتمع العربي الإسلامي، وإنتاج الولاء للدولة المركزية وإعادة إنتاجه. ومع أن إضاءة دور الدولة جزء عضوي من عمل المؤرخ، فقد شاء د. الدوري، القومي العقيدة والانتماء، أن يبيّن أن للرابطة القومية سياسات مشخّصة ضرورية لوجودها السليم، وأن القومية ليست «معطى طبيعياً» له شكل السليقة، ما دام وجودها يستدعي، لزوماً، عنصري الثقافة واللغة، اللذين يعرفان الارتقاء والانحطاط.

إذا كان في حديث د. الدوري عن التناظر المحتمل بين الأمة والقومية ما يثير ارتباك القارئ، ولو بقدر، فإن ارتباكاً موازياً يأتي من حديثه عن الشورى/الديمقراطية، اللتين تنتميان، بالمعنى العميق، إلى زمنين تاريخيين مختلفين. أكثر من ذلك، إن حديثه عن الشورى، كما حديثه عن التراث بشكل عام، يثير بعض الأسئلة، ذلك أنه أكّد أن دولتي الأمويين والعباسيين، وهما التعبير الأكبر عن الحضارة العربية الإسلامية، لم تلتفتا كثيراً إلى «الشورى»: «فالشورى لم تطبّق إلا في فترة قصيرة، والديمقراطية لم تجد التطبيق المنشود» (ص ١٩٣). وإذا كانت الدولة الإسلامية، في شكليها الأموي والعباسي، لم تعرف الشورى، فما هي الضرورة الراهنة للتذكير بها؟

ـ ٣ ـ

ثلاثة وجوه، على الأقل، تثير الإعجاب في كتاب د. عبد العزيز الدوري: التوازن الدقيق بين الوضوح والمعرفة، والتعامل بعقل حرّ مع مادة تاريخية واسعة، بعيداً عن الأحكام القاطعة ولغة اليقين. ومع أن المؤرّخ يبدو يقينياً في دفاعه عن وحدة العروبة والإسلام، فقد ترك في هذا اليقين مساحات كثيرة تتسع للسؤال والمساءلة. ويكشف الوجه الثالث عن منظور ديمقراطي في التعامل مع المعرفة، وعن تصور معرفي ديمقراطي في التعامل مع التاريخ، آيته السطور التالية: «نلاحظ أن الثقافة العربية استقت مواردها من ثلاثة منابع: الإرث العربي (اللغة والشعر وعناصر الثقافة الجنوبية)، والإسلام، والترجمات العلمية عن اليونانية، والأدبية عن الفارسية... إلخ). نقض المؤرخ أسطورة الجوهر المكتفي بذاته، وقرأ الثقافة العربية في عناصر متعددة، مدركاً أن التعدد أساس التطور والنماء □